الخرتيت

بقلم : حسين القبانى

فى بلدة ما من بلدان الجمهورية العربية المتحدة ..

قد تكون هذه البلدة فى اقصى الشمال ، او فى ادنى الجنوب .. فليس لهذا اهميته الكبيرة فى هذه القصة .

وفى مصنع ما بمشارف هذه البلدة ..

قد يكون هذا المصنع للنسيج او للغزل او للحديد او لاى شيء من هذه الصناعات التى راحت تنمو فى اقليمنا نموا مباركا ميمونا . فليس لهذا اهميته الكبيرة فى القصة .

وفى قسم من اقسام التشغيل فى هذا المصنع .

قد يكون قسم المولدات الكهربائية ، او قسم الماكينات ، او قسم التجميع ، او قسم التغليف .. فليس لهذا اهميته الكبيرة فى هذه القصة .

اذن ما الذى له اهميته الكبيرة فى هذه القصة ..

انه الخرتيت .. انه الاسطى هلال رئيس عمال هذا القسم ، ولا احد يعرف متى اطلق عليه هذا الاسم ، او من اطلقه عليه ، الا اذا عرفنا من اطلق اسم « ابو اصبع » على هذا التمثال الذى كان قائما يوما ما فى ميدان الاوبرا ، ومتى اطلق هذا الاسم !

اما لماذا سمى بالخرتيت ؟ لانه لو لم يكن آدميا لكان خرتيتا !!

ان الريس هلال كتلة من اللحم المكسو بالشعر .. طويل ، ضخم ، قصير العنق ، كبير الراس يرتفع من بين كتفيه ما يشبه السنام على ظهره ، ويبرز من وسط جبينه شيء كالكيس الدهنى كأنه قرن وحيد ، ولعل هذا النتوء هو الذى اوحى الى بعضهم باطلاق اسم الخرتيت ، اى « وحيد القرن » عليه

وهو فى مسيره ينحنى بجذعه الاعلى الى الامام فيبدو كأنه ثور يتحفز للهجوم . واذا غضب — وكثيرا ما يغضب — تراه يضرب الارض بقدميه

تماما كما يفعل ثور المصارعة فى فيلم كوفاديس .. وسرعان — عند الغضب ايضا — ما تحمر عيناه الصغيرتان المستديرتان ، ويمتلىء النتوء البارز من جبينه بالدم فيتصلب ويزداد بروزا ، وتنتفض طيات الدهن على وجهه انتفاضة الطائر فى لحظة الاحتضار ، ويرتعش السيجار الضخم الطويل الذى لا يفارق شفتيه لحظة واحدة طيلة ساعات العمل .

وكما ان احدا لا يعرف متى وكيف اطلق عليه اسم الخرتيت ، فان احدا ايضا لا يعرف كيف استطاع هذا الرجل — وهو مجرد رئيس قسم من اقسام المصنع الكبير ، أن يفرض سلطته على جميع العاملين فى المصنع، ابتداء من عمال النظافة الى طاقم الرؤساء واعضاء مجلس الادارة .

وكان طبيعيا ان تتطاير الشائعات التى تحاول أن تبرر قدرته على فرض سلطاته على الرؤساء اما بالنسبة للمرءوسين والزملاء ، فكانت ضخامة جسمه ، وعنف مزاجه ، وقوته الهرقلية كلها كافية لاشاعة الرعب منه فى صفوفهم جميعا .

فاذا اضفنا الى هذا اقتراضه لهم المال بالربا الفاحش ، امكننا ان نعرف ببساطة سر سيطرته على المرءوسين والنظراء فى المصنع ..

ولكن ، كيف استطاع أن يمد هذه السلطة على الرؤساء ؟

تقول الشائعات ان ام الريس هلال كانت يهودية ثم اسلمت بعد زواجها من ابيه ، وان الدماء الصهيونية تجرى فى عروقه ، ولعل السيدة والدته علمته منذ الصغر ان لكل انسان فى الدنيا جانبا ضعيفا فى شخصيته يستطيع الرجل الذكى ان ينفذ منه ويسيطر به عليه .

ويبدو ان الريس هلال ، كما تقول الشائعات — قد شب وهو يحرص على تطبيق هذا المبدأ من جميع المتصلين به . فهو مع المرءوسين والنظراء يستغل ضعفهم البدنى بالنسبة اليه ، وحاجتهم الملحة الى المال فى بعض الازمات ليفرض سلطانه عليهم — وهو مع الرؤساء يلجأ — اذا لم يجد الارهاب بالقوة البدنية — الى تقديم الغانيات المأجورات لمن يعرف انه « خلبوص » — هكذا تؤكد الشائعات ، والى تقديم الديكة الرومية وصفائح السمن البلدى واقفاص الفاكهة الى من يعرف انه « دباغ » — ، والى خلق المشاكل المتوالية امام الرئيس النظيف حتى يجعل بقاءه فى المصنع مستحيلا .

هكذا تقول الشائعات — التى قد تكون كلها صادقة ، او بعضها على الاقل ، فى تبرير سلطة الخرتيت التى استطاع أن يفرضها على المصنع الكبير بكل من فيه وما فيه .

ولكن العمال جميعا ، على وجه التقريب ، كانوا يعجبون ويشفقون فى الوقت نفسه — من اسراف الخرتيت فى قسوته على العامل الفنى سيد ، او « ابو عرب » — كما يحلو لزملائه ان ينادوه ..

كان ينتهز كل فرصة ، بل ويتصيد المناسبات لكى يوجه الاهانات المقذعة الى « ابو عرب » ثم يكشر عن انيابه الصفراء فى ابتسامة تحمل معنى التحدى ، وكان « ابو عرب » يحتمل

هذه الاهانات فى صبر عجيب طالما اثار اعجاب بعض الزملاء ودهشة بعضهم الآخر ، وسخرية القليل منهم الذين اطلقوا عليه اسم « الجرذ »

وتناثرت الشائعات ــ كالمعتاد ــ بأن الخرتيت يغار من « أبو عرب » لانه اول عامل متخرج فى معهد صناعى نفى ، وانه يرمز للجيل الجديد من العمال الفنيين الذين يجمعون بين الثقافة والبراعة الفنية والشعور الكامل بالمسئولية .

ولكن شائعة اخرى ــ اقوى ــ تقول ان الخرتيت يتلوى بجسمه الضخم غراما وهياما بسناء ، الموظفة الحسناء بادارة المستخدمين بالمصنع ، والواقع أن سناء كانت من هذا النوع من النساء المشحون بكمية ضخمة من الجاذبية التى تفرض سلطانها على قلب اى شاب ..

وفرضت جاذبية سناء سلطانها على الخرتيت .. انه ــ على كل حال ــ بشر من حقه أن يستجيب للجاذبية الانثوية ، وان يحب .. ولكن ليس من حقه طبعا أن يفرض هذا الحب على سناء او غير سناء لان الحب هو الشيء الوحيد الذى لا يستطيع أن يفرضه ــ ولو كان خرتيتا ــ على احد ، أو ان يشتريه احد ــ ولو كانت له اموال قارون ــ من احد !

ولم يستطع أن يغريها بجسمه الضخم او بقوته الهرقلية التى كان يظن انها دليل فحولة عارمة ، ولم يستطع ايضا أن يغريها بالهدايا التى قبلت بعضها فى اول الامر ــ مجاملة ــ

ثم رفضتها بعد ذلك فى اصـــرار عجيب ..

وابى الخـرتيت ان يقبل مجـــرد التفكير فى ان ســناء ترفض حبه ، ايعقـــل هذا ؟ ايمكن ان ترفض حبه فتاة ــ اية فتاة ــ فى المصنع ، حتى لو كانت سناء الجذابة ، وهو الحاكم بأمره فيه !

اذن لابد ان يكون هناك سبب لهذا التمنع والدلال .. ولن يكـون خرتيتا اذا لم يعرف هذا السبب ..

ولم تمض غير أيام معدودة حتى عرف الحقيقة الرهيبة التى جعلت العـرق يتصبب على جبينه وقفاه .. عرف أن سناء تبادل « أبو عرب » الحب وقـد تواعدا على الزواج فى اول فرصـة سانحة ..

وراح الخرتيت يضرب كفا بكف فى دهشة واستنكار لتصرفات بنات اليوم اللاتى يفضلن « جرذا » مثل ســيد على أسد مثله .

ولكن .. هل يليق بالاســد ، اعنى الخرتيت ان ينهــزم أمام جـرذ مثل سيد ؟

اذن يجب على الخرتيت ان «يفوره» بسرعة صاروخية ، والا فسوف يجعل منه اضحوكة المصنع .. وابى « ابو عرب » ان « يفور » بسرعة او ببطء .. ولكن نظراته النارية الى الخرتيت كانت تحمل فى طياتها معانى جديدة أبعـد مايكون عن الرضوخ والاستسلام ..

كان يصر على اســنانه ، ويزم شفتيه كأنما يخشى أن تنفلت منه عبارة تكشف عما يريده فى نفسه للخرتيت .. وفى احيان اخرى كانت ترتســم على شفتيه ابتسامة خفيفة .. ابتســامة الرجل الذى يؤمن بالمثـل القــائل « الشاطر يضحك فى الآخر »

وسرى فى جو المصنع شعور خفى بالترقب والتوتر . كان الجميع يدركون أن الموقف بين « أبو عرب » الجرذ ــ وبين الرئيس هــلال ــ الخرتيت لن يستمر هكذا بلا نهاية ..

ولكن هذا الشعور لم يلبث أن تلاشى او على الاصح ، أن انزوى امام الفرحة الغــامرة التى ملأت نفوس العمــال جميعا عند اذاعة القوانين الاشتراكية الجديدة التى صدرت فى عيد الثورة المباركة التاسع ..

لقد وجد العمال انفسهم ، فى يوم وليلة ، شركاء فى المصنع ، شركاء فى الانتاج ، وفى الادارة وفى الارباح .. اى ان المصنع لم يعد ملكا لفرد واحد ، وانما ملك لهم وللشعب بأسره ..

وسرت فى نفوسهم فرحة العمر .. فرحة الذى تحققت آماله فجــأة بعد ان طال الانتظار . وبطبيعة الحال لم يكن لهم حديث فى الصباح التالى لاعلان هذه القوانين الثورية الاشتراكية الا عن هذا العهد الجديد السعيد الذى فتح لهم أبواب الرخاء والشعور بالاستقرار والتطلع الى المســتقبل فى ثقــة وامان .

ودخل « الخرتيت » بجسمه الضخم وسيجاره الممتد من شــفتيه كالمدخنة الافقية ــ أو كما سماها بعض العمال « الشكمان » وتلفت حوله حيث وقف بعض العمال الغافلين عنه يستطردون فى الحديث عن هذه القوانين ، وفجأة ضاقت عيناه ، وتصلب قرنه الوحيد ،

وتقدم قائلا بصوته الذى كان اقرب فى نبراته الى نباح كلب عقور ..

ـ والله عال .. ما نقلبها قهوة احسن !

وتفرق العمال مسرعين الى آلاتهم ولكن العامل ابراهيم تلكأ قليلا ،وسار متمهلا كأنما الأمر لايعنيه فى شيء ، وضرب الخرتيت ارضية العنبر بقدمه تماما كما يفعل ثور فيلم كوفاديس : وتقدم متحفزا نحو ابراهيم ثم اطبق يده الضخمة على قفاه قائلا :

ـ انت يا واد مش عاجبك كلامى !

وترك العمال آلاتهم ووقفوا يترقبون .. ولم تكن تلك اول مرة يشتبك فيها « الخرتيت » بأحد العمال ويرغمه على الرضوخ لاوامره. ولكن العمال ـ لامر ما ـ كانوا يتوقعون بدافع احساس خفى ان زميلهم ابراهيم لن يرضخ لجبروت«الخرتيت».

وصدق احساسهم فقد ابى ابراهيم ان يستسلم ، رغم كل محاولات « الخرتيت » معه . بل لقد تمادى وقتل وهو يكتم آلام عنقه فى جهد :

ـ انا من النهاردة راجل ، وحانضل راجل على طول .

وسقط على الارض فى شبه اغماء وحاول بعض العمال ان يهرعوا الى اسعاف زميلهم .ولكن الخرتيت استدار نحوهم ، وعاد « يرفص » الارضية بقدمه كثور فيلم كوفاديس ، ثم يدير نظراته فيهم قائلا :

ـ اللى عاوز يحصله يتفضل يورينى شطارته ..

ولم يستطع احدهم ان يغامر ويضع عنقه فى قبضة هذا الوحش الآدمى .. ولعلهم جميعا تذكروا عندئذ الحفلة الرياضية التى اقامها المصنع فى العام السابق بمناسبة الاحتفال بعيد الثورة الثامن .. لقد وقف « الخرتيت » ومن ثم تقدم ـ وكان يضرب على صدره ـ تماما كطرزان ـ يعرب عن استعداده لمصارعة اثنين فى وقت واحد .. ولما كانت الحفلة تحت اشراف مديرى المصنع واعضاء مجلس ادارته ، فقد عز على الريس ابو العلا ان يحنى العمال ، كل العمال، رءوسهم فى ذلة واستخذاء امام « الخرتيت » ومن ثم تقدم ـ وكان يمتاز ايضا بضخامة الجسم ـ الى الحلبة بين هتاف العمال وتصفيقهم الجنونى .

ولكن الريس ابو العلا لم يلبث بعد لحظات ان حمل الى المستشفى حيث ظل يعالج من كسور عظامه ستة اشهر وبضعة ايام ..

ولعل العمال كانوا يذكرون انفسهم فى تلك اللحظة بذلك الحادث ، ولعله هو ايضا قد ادرك ما يدور بخواطرهم، فارسل ضحكته المجلجلة وقال :

ـ ها .. ها .. فاكرين انكم حاتبقوا اصحاب المصنع بصحيح .

ثم ضرب على صدره واردف قائلا :

ـ طول ما انا هنا مش حايكون للمصنع صاحب غيرى ، فاهمين !

وغادر العنبر بعد ان امر كلا منهم بالعودة الى آلته

ولكن العمال اجتمعوا حول زميلهم

ابراهيم الذى نهض يترنح وهو يتحسس قفاه . وقال العامل مرسى بصوت هامس :

ـ مش كلام دا يا جدعان .. احنا لازم نشوف لنا طريقة مع الكاينه دا !

وقال العامل عبد الصبور :

ـ على كل حال المسالة هانت .. بكره حايبا لنا ممثلين فى مجلس الادارة وبكره نتخلص منه ..

وهنا تقدم العامل الفنى سيد وقال : تفتكروا ان المصنع يمكن يستغنى عنه ؟

ـ ليه لأ ، هو اللى خلقه ما خلقش غيره ..

ـ مفيش غيره يعرف اصغر واكبر حتة فى كل آلة وفى كل مكنة وفى كل موتور بالمصنع ..

وكان سيد « ابو عرب » غير مبالغ فى حديثه هذا عن « الخرتيت » الذى عاصر المصنع منذ نشأته واستطاع ان يجمع بين يديه كل اسرار تشغيله . وقد حاول احد المديرين ان يفصله ، فتوقفت الآلات فى قسم المولدات الكهربائية ، وعبثا حاول المهندسون اصلاحها . ولما اعيد « الخرتيت » الى عمله ، تحركت الالات وازداد سلطانه قوة ..

وقيل يومذاك ان لديه اعوانا ماجورين كل مهمتهم أن يعطلوا الآلات اذا تجرأ احد الرؤساء على فصله .

ولكن .. اين الدليل ؟

وقال العامل مرسي :

ـ يعنى عشان كدا لازم نعيش تحت رجلين الكاينة ..

فقال سيد « ابو عرب » :

ـ اعتقد ان فيه حل يكسر شوكته وفى الوقت نفسه يخلى المصنع ما يتحرمش من خبرته .

ـ وايه الحل ؟

وصمت سيد برهة قبل ان يقول :

ـ واحد مننا يهزمه فى المصارعة الحرة يوم الحفلة الرياضية فى الجمعة الجاية ..

ونسي العمال انفسهم وانفجروا ضاحكين ساخرين :

واسرع زميل لهم كان يرهف السمع عند مدخل العنبر قائلا :

ـ الخرتيت جاى ..

وتفرق العمال مذعورين الى آلاتهم..

وفى يوم الحفلة الرياضية ، وقف الخرتيت فى حلبة المصارعة بجسمه الهائل العارى الا من لباس المصارعة ، يضرب على صدره المكسو بالشعر الاسود الغزير ، ويرسل صيحته المجلجل قائلا وهو يختلس النظرات الى الجانب الذى جلس فيه العاملات والموظفات وغيرهن من المدعوات .. وكانت سناء بطبيعة الحال جالسة فى مكان بارز بينهن .

ـ خلاص .. مابقاش فيه رجالة فى البلد !

ولو نظر احد المتفرجين الى وجه مدير المصنع فى تلك اللحظة ، لرآه يعض على نواجذه من فرط الغيظ ولكن

المتفرجين جميعا ، وكانوا بضعة آلاف من العمال وسكان البلدة ، فوجئوا برؤية سيد « أبو عرب » — الجرذ — يتقدم الى الحلبة فى لباس المصارعة وقد زم شفتيه ، وتألقت عيناه بنظرات غريبة كأنها — فى وميضها — الشرر :

وسرت بين الآلاف همهمة دهشة وخوف واشفاق . وصاح احد الجالسين بجانب المدير قائلا :

— ارجع يا سيد .. انت مجنون

وقال احد المتفرجين :

— دا يظهر عليه عايز ينتحر :

ولكن سيد كان قد صعد الى الحلبة وقد بدا جسمه الاسمر البرونزى طويلا متناسق الاجزاء مفتول العضلات . ولكنه ، رغم هذا ، بدا كالجرذ امام العملاق الريس هلال ..

وارسل « الخرتيت » ضحكة ساخرة مجلجلة وتقدم فى استهتار ليحمل سيد بيد واحدة ويلقى به خارج الحلبة وهو يقول :

— ما احنا بقينا فى زمن العجايب .. ما بآش كمان الا الصراصير تقف قدام السبعه .. يا ابنى روح

وانقطع الحديث على شفتيه حين وجد نفسه يرتفع فى الهواء بضعة اقدام ثم يستقط كالجلمود على ارضية الحلبة ..

وظل راقدا برهة كأنما لا يصدق ما حدث ، وخيم الصمت النابع من الدهشة المخيفة على الجميع وفجأة ارتفعت الصيحات وتعالى الهتاف ودوى التصفيق ، وصاح احدهم وهو يقف على مقعده راقصا :

— ايوه كدا يابو عرب .. ينصر دينك ..

ووثب « الخرتيت » كالكرة واقفا ، وهجم على سيد فى عنف يحاول الايقاع به بين يديه وكان فى الواقع يعلم — والجميع يعلمون — انه لو امسك بسيد بين يديه فى تلك اللحظة لازهق روحه . ولكن سيد كان محتفظا بهدوئه مدركا تماما ماذا ينبغى ان يفعل ، متوقعا كل حركة يقوم بها غريمه .

وفى لحظات انتصر الفن على القوة الغاشمة وهكذا استطاع سيد أن يجنى ثمرة تدريبه سرا — لمدة عام كامل — على المصارعة اليابانية ، فاذا هو يهزم « الخرتيت » فى اقل من عشر دقائق . واذاهو ينتهز فرصة سقوط «الخرتيت» على وجهه ، فينقض عليه من الخلف ، ويضع كل قوته فى يديه وهو « يسفقه التراب » — كما قال العمال ..

وانفجر « الخرتيت » فى النهاية باكيا ..

ولم يعد العمال يسمونه «الخرتيت» منذ ذلك الحين .. وانما اختاروا له اسما آخر اظنه « عيشة » !! .